الشفاهيّة والكتابيّة: صراع أم تعايش؟

شهيرة بوخنوف

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف– ميلة، boukhennouf.chahira@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/03/13 **تاريخ المراجعة:** 2022/05/23 **تاريخ القبول:** 2022/05/24

ملخص

تعتبر ثنائية الشفاهية والكتابية من الثنائيات التي لفتت أنظار الباحثين في مختلف التخصصات، وذلك لتحديد أهميتهما والبحث عن خصوصية كلّ واحدة منهما، وعن العلاقة التي تربطهما... ولاسّيما وأن حضور الكتابية يستدعي في الذاكرة حضور الشفاهية، فإذا كانت الشفاهية هي الوسيط الوحيد في عملية التواصل بين أفراد المجتمعات الشفاهية، فإن الكتابية غيرت شكل وعي الإنسان أكثر من أي اختراع آخر، إنها تقوم بحفظ الشفاهية من الاندثار.

الكلمات المفاتيح: شفاهيّة، كتابيّة، صراع، تعايش.

Orality and writing: Conflict or coexistence?

Abstract

The orality and writing dichotomy was among several dichotomies that drawn the attention of researchers in different disciplines, In order to determine their importance and find the specificity of each one, and the relationship they have. In particular, the presence of one of them recalls the presence of the other, and if the orality is the only medium in the process of communication between members of oral communities, the literature has changed the shape of human consciousness more than any other invention; it preserves and maintains the orality from extinction.

Keywords: Orality, writing, conflict, coexistence.

Oralité et écriture : Conflit ou coexistence?

Résumé

L'oralité et l'écriture font partie de plusieurs dichotomies qui ont attiré l'attention des chercheurs dans de différentes disciplines. Afin de déterminer leur importance et de trouver la spécificité de chacune, et la relation qu'elles entretiennent. En particulier, la présence de l'une d'elle rappelle la présence de l'autre. Si l'oralité est le seul moyen de communication entre les membres des communautés orales, l'écriture a changé la forme de la conscience humaine plus que toute autre invention; car elle préserve et maintient l'oralité de l'extinction

Mots-clés: Oralité, écriture, conflit, coexistence.

المؤلف المرسل: شهيرة بوخنوف، boukhennouf.chahira@gmail.com

مقدمـــــة

مرّت كلّ ثقافات الأمم بمرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى هي المرحلة الشفاهية التي تعتمد على المنطوق، أي على الارتجال، والرواية، والحفظ الذهني... وكانت قناة أساسية للتواصل والمعرفة والفكر، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الكتابة (التدوين) التي حاولت الحفاظ على ثقافات وفنون تلك الأمم، وإبداعاتها واختراعاتها الشفويّة المختلفة من خلال التوثيق والتدوين.... لولاها لا ضاع ذلك الإرث الثقافي الشفاهي الذي يركز على الذاكرة، والصوت، ولغة الجسد، وعلى قوة الكلمة... لكن هل استطاعت الكتابة – التي تتطلب قارئا ومدونة– أن تحتفظ بخصائص الشفاهية – التي تتطلب متكلما ومستمعا– أثناء عملية تدوين النصوص؟ وهل يمكن لهما التعايش مع بعضهما البعض؟

أوّلا: الشفاهيّة

عاشت الشعوب قبل اختراع الكتابة على الشفاهية التي كانت وسيلتهم الوحيدة في التواصل، بدليل أن الإنسان تكلم قبل أن يكتب، فالشفاهية حاضرة معنا، تصاحبنا دائما، تتجسد في تفكيرنا وسلوكنا... وقد بدأت مختلف الفنون الأدبية كالأشعار مثلا شفاهيا، فالشعر الجاهلي قد «ولد نشيدا، أعني أنه نشأ مسموعا لا مقروءا، غناء لا كتابة. كان الصوت في هذا الشعر بمثابة النسيم الحيّ... تفترض الشفوية السماع، فالصوت يستدعي الأذن أولا. ولهذا كان للشفوية فن خاص في القول الشعري، لا يقوم في المعبّر عنه، بل في طريقة التعبير، خصوصا أن الشاعر الجاهلي كان يقول إجمالا ما يعرفه السامع مسبقا: كان يقول عاداته وتقاليده، حروبه ومآثره، انتصاراته وانهزاماته»[1].

يعني هذا أن الأشعار قد نشأت شفاهية، مسموعة لا مقروءة، فيها يتحقق اللقاء بين فعل الصوت وفعل الجسد، فبعض الشعراء في العصر الجاهلي «مثلا ينشد قائما، وكان بعضهم يرفض كبرياء أن ينشد إلا جالسا. وكان بعضهم يقوم بحركات من يديه أو من جسمه كله كالخنساء التي كانت فيما يروى "تهتز... وتنظر في أعطافها" وهذا ما يحقق في الشفوية اللقاء بين فعل الصوت وفعل الجسد، فعل الكلمة وفعل الحركة...»[2] فالشعراء الذين يستخدمون أثناء إلقائهم للشعر مختلف الإيماءات والحركات سيحققون مبتغاهم المتمثّل في جذب المتلقين وإقناعهم... أكثر من الشعراء الآخرين، لأنهم استطاعوا أن يمزجوا الكلام المنطوق (الصوت/ الكلام) مع حركات الجسد (فعل الجسد)، وهذا ما أكده عالم النفس "دافيد ماكنيل، الذي يقول «إن الإشارات التي نستخدمها ونحن نتكلم هي في الحقيقة متزامنة بالدقة مع الكلام، مقترحا أن الكلام والإشارات معا يؤلفان نظاما واحدا متكاملا»[3].

يتزامن استخدام الإشارات مع الكلام، أي إن الكلام المنطوق بحاجة ماسة إلى استخدام الإشارات التي «تتألف من حركات مختلفة بالأيدي على جسم المشير أو قريبا منه، وإن كانت تعبيرات الوجه تسهم في الأداء أيضا، وبعض هذه الإشارات تكون بكلتا اليدين وبعضها بيد واحدة... وعلى الرغم من أن اليدين تؤديان الإشارات الأساسية فقد يكون للوجه والرأس دور في النحو الإشاري»[4].

ترافق الإشارات المختلفة الأداء الشفوي، فهي تساعد على توضيح الكلام وإيصاله إلى المستمعين، كأن نقول مثلا: "اصطدت أرنبا بهذا الحجم"، فالمتكلم هنا قد استخدم الكلام المنطوق الشفهي "اصطدت أرنبا"، واستخدم في الوقت نفسه حركات الجسد، وبالضبط وظف إشارة (يديه معا)، وهذا ما يدله لفظ (بهذا الحجم). فالكلام – إذن– قد تزامن مع الإشارة (اليدين)، أي خروج الصوت كان متزامنا مع فعل الجسد، فحقق هذا التزاوج (بين الصوت

والجسد) تواصلا فعالا وهادفا، إذ كلما تزامنت الأصوات المنطوقة مع الإيماءات المختلفة كان التواصل ممتازا وفعالا داخل المنظومة الاجتماعية.

وترى «اللسانيات الحديثة على اختلاف مدارسها أن اللغة المنطوقة تسبق اللغة المكتوبة وتسوغ حكمها هذا بأمرين اثنين هما:

أ- أن اللغة (المحكية) أقدم وأوسع انتشارا من الكتابة؛

ب- أن عودة أنظمة الكتابة كلها إلى وحدات وعناصر من اللغة المنطوقة أمر ثابت»[5].

وقد حدد "والترج أونج" أنواع الشفاهية في نوعين أساسيين هما: "الشفاهية الأوّلية" و"الشفاهية الثانوية"، فهو يسمي «شفاهية الثقافة التي لم تمسها مطلقا أية معرفة بالكتابة أو الطباعة "شفاهية أولية" إنها "أولية" بالتقابل مع "الشفاهية الثانوية" التي تتميز بها الثقافات ذات التكنولوجيا العالية في الوقت الحاضر، حيث تحافظ شفاهية جديدة على وجودها واستمرارها في وظيفتها من خلال التلفون، والراديو، والتلفاز، والوسائل الالكترونية الأخرى التي يعتمد وجودها وأداؤها لوظيفتها على الكتابة والطباعة. أما الثقافة الأولية الشفاهية بالمعنى الدقيق فتكاد تنعدم اليوم، ذلك أن كلّ الثقافات الآن تعرف شيئا عن الكتابة ولديها شيء من الخبرة بتأثيراتها»[6] فالشفاهيّة السائدة إذن في أيامنا هذه هي "شفاهية ثانوية".

ومن سيمات وخصائص الفكر الشفاهي نجد[7]:

1- عطف الجمل بدلا من تداخلها: تميل الشفاهية إلى استخدام عطف الجمل، كاستعمال حرف العطف "الواو".

2- الأسلوب التجميعي في مقابل التحليلي: ويرتبط هذا ارتباطا وثيقا بالاعتماد على الصيغ لتقوية الذاكرة، مثل استعمال العبارات المتوازية، أو المتعارضة سواء كانت جملا بسيطة أو مركبة، أو نعوتا مثل: "الجندي الشجاع" بدلا من "الجندي".

3- الأسلوب الإطنابي أو "الغزير": وهو تكرار ما قد قيل توا، حيث يكون المتكلم والسامع على الخط نفسه بشكل مؤكد، ويبرز الإطناب أكثر في المحادثات التي تتم وجها لوجه... أي إعادة الكلام إذا أمكن بشكل فني أفضل من التوقف عن الكلام جريا وراء الفكرة التالية.

4- الأسلوب المحافظ أو التقليدي: أي توظيف صوت الماضي المتمثّل في تكرار الموضوعات، والأشياء القديمة؛ وبطبيعة الحال لا تفتقر الثقافات الشفاهية إلى الأصالة الخاصة بها. ولا تكمن أصالة السرد في تأليف قصص جديدة، بل في القدرة على التفاعل مع جمهور بعينه في وقت بعينه، حيث ينبغي في كلّ مرة أن تقدم القصة بشكل متفرد في موقف متفرد...

5- القرب من عالم الحياة الإنسانية: ينبغي على الثقافات الشفاهية أن تصوغ كلّ معارفها وتتكلم عنها بشكل يجعلها وثيقة الصلة بالحياة الإنسانية المألوفة والمباشرة... أي التحدث عن التجربة اليوميّة.

6- لهجة المخاصمة: فالفكر الشفاهي يميل إلى النزاع، والمخاصمة، وذلك في الأقوال وفي أسلوب الحياة، فالألغاز مثلا لا تُستخدم لتخزين المعرفة فحسب، بل لجذب الآخرين إلى معركة لفظية أو ذهنية، أي عبارة عن مبارزات كلامية.

7- الميل إلى المشاركة الوجدانية في مقابل الحياد الموضوعي: لا يعبر الفرد عن رد فعله بصفة فردية (ذاتية)، بل بنسجه في رد الفعل الجمعي، أو الروح الجمعي.

8- التوازن: المجتمعات الشفاهية متوازنة تتخلص من الذكريات التي لم تعد لها صلة بالحاضر.

9- موقفية أكثر منها تجريدية: تميل الثقافة الشفاهية إلى استخدام مفاهيم تعتمد على مرجعية ذات درجة ضئيلة من التجريد، فهي لا تتعامل مع موضوعات مجردة مثل: الأشكال الهندسية، والتصنيفات المجردة، وعمليات التفكير المنطقية الصورية، والتعريفات... بمعنى أن الثقافة الشفاهية تظل قريبة من عالم الحياة الإنسانية...

10- أسلوب الحياة ذو الحركية اللفظية: فالثقافة الشفاهية هي ثقافة حركية لفظية، تعتمد على الأفعال والمواقف، وعلى التفاعل الإنساني...

11- الشخصيات البطولية الثقيلة والعجيبة: فالذاكرة الشفاهية تعمل بفعالية أكثر عندما يتعلق الأمر بشخصيات عجيبة بطولية، فهي تتذكر تلك الشخصيات العجيبة الخارقة التي قامت بأعمال بارزة أكثر من الشخصيات الأخرى...

12- داخلية الصوت: ففي الثقافة الشفاهية الأولية لا وجود لكلمة إلا في الصوت الذي يدخل بعمق إلى شعور الكائنات البشرية...

13- الجماعة والمقدس: في معظم الأديان تقوم الكلمة المنطوقة بوظيفتها على نحو متكامل في الحياة الطقسية والتعبدية، وهي مرتبطة بالجماعة التي تشكل وحدة واسعة...

14- الكلمات ليست علامات: الرموز الساكنة غير المنطوقة كانت علامات، في حين لم تكن الكلمات كذلك، مثلا لم يكن أصحاب المحلات يميزون محلاتهم بكلمات ذات حروف، ولكن برموز أيقونية، مثل شجرة اللبلاب رمزا للحانة...

لعلّ هذه الخصائص الشفاهية هي التي ساعدت الشعوب الشفاهية على عملية الحفظ والتذكر، كما نجد أيضا عوامل أخرى مساعدة على التذكر، مثل: القيام بعملية التفكير نفسها داخل أنماط حافزة للتذكر، واستعمال كلمات متجانسة، أو مسجوعة، أو عبارات وصفية، واعتماد العبارات الجاهزة المستخدمة بمهارة...[8] فمجتمعات «التقاليد الشفهية تتميز إذن بخصوصية تتمثل في ضبط الظواهر الاجتماعية وتنظيمها استنادا إلى قوة الكلام وحدها، مع ما يرتبط بذلك من وسائل وتقنيات لتخزين المعلومات وحفظ الذاكرة»[9] فالشفاهية إذن تعتمد على قوة الكلام، أي أنها لا تعيش إلا بالممارسة والقول.

ويعد "أفلاطون" من المؤيدين للشفاهية والمعارضين للكتابة، يقول على لسان سقراط إن الكتابة غير إنسانية، تضعف العقل وتدمر الذاكرة، فالذين يستخدمونها سيصبحون كثيري النسيان، وهي لا تستطيع أن تدافع عن نفسها مثلما تفعل الكلمة المنطوقة، إنها تحيا في عالم غير حقيقي شأنها شأن الحواسيب...[10] لذلك فقد طرد الشعراء من جمهوريته تحت تأثير الكتابة. وقد أُنتقد أفلاطون لأنه سجل اعتراضاته كتابة لكي يجعلها فعالة[11]، أي أنه كان يكره الكتابة ويدعو إلى التلقي المباشر، لكنه وقع فريسة للكتابة...

ويختلف النص الشفاهي حتى وإن كان على لسان الرّاوي نفسه، ويرجع ذلك إلى رد فعل الجمهور، ومزاج الرّاوي، ومختلف الظروف النفسية والاجتماعية... لذلك قد يقول قائل: إن كثرة التنويعات والروايات للنص الواحد دليل على تحريف النصوص الشفاهية؟ يجيبنا "لويس جان كالفي" قائلا: «إن تنويعات النص الشفهي ليست علامة على حالات خيانة لشكل قارّ، تسعى تلك الروايات إلى استعادته، بل إنها تندرج في إطار أسلوب يستهدف التخزين في الذاكرة، ويضطلع أيضا بوظائف أخرى، وهو الأسلوب الشفهي»[12]. أي إن كثرة الروايات للنص الواحد تهدف إلى تخزينها في الذاكرة... وهي مرتبطة بالسياق والظروف المختلفة.

كما أن كثرة «تردد "الصيغ" المتكررة التي تضفي على النص الشفهي طابعه الخاص لا يعني بتاتا أن "القائل" يكتفي بدور سلبي، ذلك أن أي تلفظ هو في الوقت نفسه إبداع ونقل جديدين، كما أن النص الشفهي هو مثل الأغنية في مجتمعاتنا، فإذا كان نجاح الأغنية يتوقف على أسلوب القطعة المغناة، وعلى شخص المغني معا، ففي النص الشفهي نجد أيضا الحكاية وأيضا طريقة سردها. وهذا المتغير الفردي الذي قد يكون من طبيعة أسلوبية، قد يكون أيضا سياقيا حيث يتم تكييف النص مع واقعة معينة أو جمهور خاص»[13] والتكرار لا يأتي عبثا، إنما لأسباب كثيرة، فقد يكون للتصحيح أو التعديل أو لإيراد مترادفات مناسبة... وكلّ تكرار هو في الوقت نفسه إبداع ونقل جديدين ناتجين من تكييف النص حسب السياق والمقام...

ويؤخذ على الكلمة المنطوقة الشفاهية «تأثرها بعوامل الأداء مثل محدودية قدرة المتكلم الناطق بها على التفكير، وضعف تركيزه وتأثره بعوامل خارجية، إلا أن الاتصال المباشر بين المتكلم والمستمع وعفوية التعبير قد يعوضان هذه النواقص»[14]. أي إن الاتصال المباشر بين المتكلم والمستمع يعوض ضعف تركيز المتكلم أثناء كلامه مع المستمع. و«كثير من مزايا اللغة المنطوقة التي كانت تعد خطأ في الماضي، صارت تنوعا في استعمال الوسائل اللغوية اليوم، ومن هذه الخصائص التي كانت تعد كذلك ما يلي:

- الإسهاب (والحشو) والتكرار في أسلوب الكلام الشفهي
- الاستعمال المتواتر (المتكرر) لوسائل الإشارة أو وسائل الإحالة الأخرى
- أسلوب الترابط الفكري»[15].

ثانيا: الكتابيّة

ظلت البشرية لآلاف من السنين شفاهية، تستعمل وسائل مختلفة لمساعدة الذاكرة على التذكر... إلا أن تم اختراع الكتابة، وهي «تحول من خطية زمنية إلى مساحة وفضاء، أي من ظواهر تدرك بالسمع إلى ظواهر تقرأ بالبصر»[16] وقد كان السومريون في بلاد ما بين النهرين أوّل من خط الكتابة وذلك حوالي عام 2500 قبل الميلاد[17]. وقد «كانت أقدم الوثائق المكتوبة في بلاد الرافدين التي عثر عليها حتى اليوم تتكون إجمالا من أربع مجموعات رئيسية من الألواح الطينية التي كانت تستخدم بمثابة الورق في البلاد وأقدمها، وقد اكتشفت في مدينة الوركاء السومرية (ومن ثمة اسم ألواح الوركاء الذي أطلق عليها) وكذلك في مدينة كيش الآكدية...»[18].

ويرى بعض الباحثين مثل "بيير أميي"(Pierre Amiet) أن الكتابة قد ظهرت إلى الوجود في أوساط الفلاحين في بلاد ما بين النهرين وفي التخوم الإيرانية، ولكن هناك من لم يشاطره الرأي مثل "مارسيل كوهن" (Marcel Cohen) الذي يرى عكس ذلك، فالكتابة عنده ظاهرة حضرية[19].

ابتكرت الكتابة بغض النظر عن مكان ظهورها تلبية لحاجات عملية كضبط الحسابات، وتحرير العقود والقوانين... لذلك ظلت بسبب أصلها ذاك وأيضا بسبب التطور الذي عرفته المجتمعات في البداية حكرا على الطبقات الاجتماعية الحاكمة، فالكتابة نشأت استجابة لبعض الحاجيات المرتبطة بالسلطة والفئة الحاكمة، سواء كانت إقطاعية، أم دينية، ولم تنتشر داخل مختلف أوساط المجتمع إلا ببطء شديد[20]. فالكتابة إذن كانت تستعمل في بداية ظهورها لضبط مختلف الحسابات، كما كانت حكرا على الطبقات الاجتماعية الحاكمة، ثم انتشرت تدريجيا في مختلف طبقات المجتمع.

وتتفق «الشواهد التي وصلتنا عن العصر الجاهلي أن الكتابة كانت مستعملة، وكان يحض على استعمالها وتوسيع مجالات وجودها، ولكن الحضور الواسع للكتابة لن يتحقق إلا بعد القرن الثاني الهجري، وسيظل هذا

الحضور الكتابي يتسع إلى أن يصبح مهيمنا منذ القرن الرابع الهجري...»[21]. والكتابة ضرورية أساسية، فهي التي تحفظ ثقافة الشعوب من الزوال والاندثار.

وقد حلّل "جان بوتيرو" المراحل الثلاثة الكبرى في تقدم الكتابة، وحدّدها كالتالي[22]:

1- الكتابة في المرحلة الصورية:

وهي المرحلة الأولى من الكتابة، وتتمثّل في رموز صورية، كلّ منها يعبّر عن الشيء الذي يرسمه ويخططه، فرأس ثور مثلا يشير إلى الثور، والسنبلة تشير إلى الحبوب، وأنصاف الدوائر الثلاثة العليا بشبه مثلث تشير إلى صورة جانبية للجبل... وتأتي هذه الكتابة مباشرة من عروض الفن التشكيلي وهي تنقل حسب طريقتها أشياء مادية وحقائق خارج الذهن... أي أنها عبارة عن أشكال هندسية مختلفة تشير إلى الشيء المرغوب...

2- المرحلة الصوتية:

بعد اكتشاف الكتابة الصورية بقرن واحد على أكثر تقدير، تم اكتشاف آخر أكثر أهمية، وهو اكتشاف الطريقة الصوتية التي تتمثل في كتابة كلمات... فليست العلامة من بعد صورة رمزية أو فكرة رمزية... بل هي صوت رمزي يذكر بحدث ويدونه، والطريقة الكتابية لم تعد كتابة أشياء، بل كتابة كلمات. وهي لا تنقل الفكرة وحدها بل الكلام واللغة...

3- الكتابة بمعناها التام:

وفي هذه المرحلة تمت تنمية الكتابة الصوتية، أي تم التزاوج بين الكتابة والكلام، ومما سهل هذا التقدم هو وجود استعمال اللغة السامية إلى جانب السومرية في بلاد الرافدين خلال النصف الأول من الألف الثالث، واضطرار الناس إلى نقلها، وتثبيتها، وبالطبع مع الرموز الصورية – الصوتية التي اخترعها السومريون للغتهم الخاصة...

ونجد أن هناك «نوعين من الكتابة، كما يقترح دريدا، الأوّل: كتابة تتكئ على "التمركز حول العقل" وهي التي تسمى الكلمة كأداة صوتية أبجدية خطية وهدفها توصيل الكلمة المنطوقة، والثاني: الكتابة المعتمدة على "النحوية" أو كتابة ما بعد البنيوية، وهي ما يؤسس العملية الأولية التي تنتج اللغة»[23]، أي إن هناك كتابة صوتية تعتمد على الصوت، هدفها توصيل الكلمة المنطوقة، وكتابة نحوية ترتكز على القواعد النحوية المختلفة، من خلالهما معا نستطيع تحقيق كتابة جيّدة، محافظة على المنطوق والقواعد معا.

ويستشهد «المدافعون عن مكانة الكتابة بما نسبوه إلى حكماء اليونان من أنهم أطلقوا تسمية "العلم المحيط" على صناعة الكتابة، لافتقاد جميع الأشياء إليها وحاجة كل من في الدولة إلى الاستعانة بها، كأنها قرين الفلسفة أو توأم الحكمة التي هي العلم بكل شيء»[24]. والكتابة ضرورية مهمة، تحفظ الإرث الثقافي من التلاشي والاندثار.

ثالثا: صراع- تعايش بين الشفاهيّة والكتابيّة

كانت مجتمعات الكتابة تنظر دائما إلى المجتمعات من دون كتابة نظرة دونية، انطلاقا من معيار غياب الكتابة، ومن الذين يحتقرونها نجد "جيمس ففريي" (James Février) الذي «يعتبر أن الكتابة ظاهرة مرتبطة بـ "الإنسان المتحضر" لأن البدائي لا ينطلق من المفهوم وصولا إلى الكلمة المنطوقة وانتهاء بالكلمة المكتوبة، فهو لا ينطلق من تلك الرغبة المنزهة عن أي منفعة مباشرة في أن يضمن فكرته وعاء الاسم، ويقيد الاسم بالكتابة. إنه يكتفي بأن يفعل، مصداقا لهذه المقولة اللاتينية Vivere primum أي العيش أوّلا»[25]. أي أنه يرى أن الكتابة

معيارٌ للتمييّز بين الإنسان المتحضر والإنسان البدائي... فالكتابة في نظره مرتبطة بالتحضر والرقي... أما الشفاهية فمرتبطة بالإنسان البدائي.

ويعد «إقحام الكتابة في مجتمعات ذات تقاليد شفهية هو فعل أقرب إلى الانقلاب والثورة المفروضة للاعتبارات التالية[26]:

– لحظة الإقحام لم تأت تتويجا لمسار من التطور الداخلي للمجتمع المعنيّ؛

– هذا الإقحام يستجيب عموما لحاجة خارجية... إن التفكير في تدوين الأدب يتم عموما بعد أن تتوافر اللغة على أبجدية ما، بينما نرى أن نشأة الأبجديات لم تأت تاريخيا استجابة لحاجيات أدبية

– اختيار الأبجدية نفسه يأتي مفروضا من الخارج، مستوحيا نموذجه من نمط تدوين لغة ذات حظوة أو لغة استعمارية.

يعتبر إقحام الكتابة – إذن– في المجتمعات الشفاهية أشبه بالصراع والثورة على شفاهيتهم، ولاسيّما وأن الكتابية قد أُنتقدت في العديد من الأشياء، منها «ما عبر عنه المهتمون بدراسة اللغة من وجود الحرج والضيق من عدم قدرة الكتابة على تصوير ما يكون باللفظ تصويرا كاملا، لأن جهاز الأصوات والحركات المصطلح عليه ليس له القدرة على تمثيل كل ما يطرأ على النطق من تغيير من جيل إلى جيل أو من قطر إلى قطر في اللسان الواحد»[27] وهذا ما جعل بعض الباحثين يقول «إن اللغة المكتوبة ما هي إلا كائن طفيلي يعيش على الكلام»[28] وهي تفتقد إلى الحيوية التي هي ضرورية للتفاعل بين الطرفين: المتكلم والمتلقي...

حدث نتيجة ذلك نوع من الصّراع – إن صح هذا التعبير– بين الشفاهيّة والكتابيّة، ولعلّ ذلك أيضا راجع إلى بعض الفروق الموجودة بينهما، منها:

– تعتمد الشفاهيّة على الصوت ومن ثم على حاسة السمع، على حين أن الكتابيّة تعتمد على الخط والحرف، ومن ثم على حاسة البصر، أي:

الشفاهية ← الصوت ← السمع

الكتابية ← الخط ← البصر

– الشفاهية آنية سريعة، تنتهي بانتهاء لحظة نطقها، أما الكتابيّة فهي خالدة تبقى ما بقي حفظها آمنا من جهة، ومن جهة ثانية نجد أن اللّغة المكتوبة تقبل التصحيح والتنقيح، أما الشفاهيّة فلا تقبل ذلك؛ إذ يلاحظ «أن الكلمة المنطوقة ليست أكثر من الصورة الصوتية اللحظية أو الآنية التي تحدث مرّة واحدة فلا تقبل الإعادة ولا تقبل التصحيح»[29].

– اختلاف عملية الحفظ، ففي الثقافة الكتابيّة يتم الحفظ بتدوين النص للعودة إليه كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، لتحسين مستوى الحفظ واختباره، أما في الثقافة الشفاهيّة فكان السبيل الوحيد لاختبار استظهار مقاطع طويلة هو تسميع شخصين أو أكثر معا في الوقت نفسه[30]؛

– إن «الكتابة ظاهرة شكلية مشتقة من الكلام الشفهي، أو مستندة إليه لأنها تمثّل نقل اللغة من الصورة المنطوقة المسموعة إلى الصورة الرمزية المرئية»[31] أي إن الشفاهيّة رئيسية، بينما الكتابيّة ثانوية؛

– إن «التواصل الشفاهي يوحد الناس في مجموعات، أما الكتابة والقراءة فنشاطان انفراديان يسحبان النفس إلى ذاتها»[32] فالشفاهيّة جماعية، أما الكتابيّة فانفرادية؛

– تختلف الذاكرة الشفاهيّة عن الذاكرة النصية، من حيث إن الذاكرة الشفاهية تستعمل المكون الجسدي بقوة مثل: الإشارة باليد، والتأرجح إلى الخلف أو إلى الأمام، والرقص، وتنغيم نبرة الصوت، وملامح الوجه...[33] لذلك نجد أن الحيوية والتفاعل يكون قويا أكثر في الشفاهية، لأن المتكلم (الراوي) يدعم كلامه بمختلف الحركات والإيماءات، فيتفاعل معه الجمهور(المروي له) من خلال التصفيق... وأحيانا من خلال طلب إعادة مقاطع غنائية (مثلا) أعجبوا بها...

– الشفاهيّة ظاهرة طبيعية فطرية، بينما الكتابيّة ظاهرة ثقافية مكتسبة؛

– «بينما يأتي الكلام طبيعيا من دون جهد لكلّ طفل طبيعي، فإن تعلم القراءة غالبا ما يكون عملية مؤلمة له»[34]؛

– و«تختلف حالة الكلمات في نص ما اختلافا تاما عن حالتها في الخطاب المنطوق. وعلى الرغم من أن الكلمات المكتوبة تشير إلى الأصوات وأنها لا يكون لها معنى إلا إذا أمكن وصلها – ظاهريا أو في الذهن– بالأصوات، وعلى نحو أدق بالفونيمات التي تحولها إلى رموز. فإنها تظل معزولة عن السياق الكامل الذي تبرز من خلاله الكلمات المنطوقة إلى الوجود. فالكلمة في موطنها الشفاهي الطبيعي تمثل جزءا من حاضر وجودي حقيقي...»[35] فالكتابيّة (الكاتب) لا تملك السياق الذي تملكه الشفاهيّة (المتكلم)؛

– إن «التعبير الشفاهي يمكن أن يوجد، بل وجد في معظم الأحيان دون أي كتابة على الإطلاق، أما الكتابة فلم توجد قط دون شفاهية»[36]؛

– وفي «مقابل قوة الكلمة في مجتمعات التقاليد الشفاهية، نجد قوة النص في مجتمعات الكتابة»[37]؛

– الشفاهيّة تتطلب متكلما ومستمعا، أما الكتابيّة فتتطلب قارئا ومدوّنة.

و«ثنائية الكلام والكتابة هي ما يصطلح عليه دريدا بـ "العنف"، ففي وقت يكون الكلام مشحونا بالحضور، يحتل الحضور في الكتابة مكانة ثانوية، ويلجأ دريدا إلى اشتقاق "ملحق" أو "تكملة" لينظم العلاقة بين الكلام والكتابة»[38].

إن وجود هذا التباين والاختلاف بين الشفاهيّة والكتابيّة لا يعني أنهما منفصلتان عن بعضهما البعض، إذ هناك تداخلٌ وتعايشٌ بينهما، فالعديد «من الوقائع التي تميز مجتمعات التقاليد الشفهية تحضر بدرجات متفاوتة في مجتمعات التقاليد المكتوبة. يدل ذلك طبعا على مسألة بسيطة وهي أن كل مجتمعات التقاليد المكتوبة كانت في فترة ما من تاريخها مجتمعات ذات تقاليد شفهية. فالإنسان تكلم قبل أن يكتب... إن مجتمعات التقاليد المكتوبة تحتفظ بقدر معين من الشفهية... يتبيّن لنا بجلاء أن الحدود بين الشفاهية والكتابية ليست قطعية كما قد يتصور البعض»[39]. إذ كلاهما تمتازان بالسلطة، فإذا «كانت الكتابة في أصلها إحدى امتيازات السلطة، فذلك لا يعني أن مجتمعات التقاليد الشفهية لا تعرف أي شكل من أشكال السلطة. ولنتمعن في هذا المثل المأخوذ عن قبيلة البامبارا الذي يقول "القوة تكمن في الكلمة" نْيامابي كومالا. ليست الكلمة هنا مجرد وسيلة تتحقق بها القوة، إنها أساس الضبط الاجتماعي وتنظيم الجماعة»[40]. والمثال نفسه تقريبا نجده في المجتمعات الجزائرية التي تؤمن بقوة الكلمة وسلطتها داخل المجتمعات، ففي المجتمع القبائلي الأمازيغي مثلا يقولون "أَرْقاْزْ ذَوَالْ" أي "الرجل هو الكلمة" بمعنى أن قوة الرجل تكمن في كلامه الذي لا يتنازل عنه أبدا، وإذا حدث وأن تنازل عنه تُسحب منه صفة الرجولة.

ويعني هذا أن الحدود الفاصلة بين الشفاهيّة والكتابيّة ليست حدودا قطعية، إذ «يصعب الفصل بين مفهومي السرد الكتابي والسرد الشفاهي سواء نظريا أو تطبيقيا، إذ يستدعي الحديث عن أحدهما الآخر ليتضح به وتتحدد باختلافاته عنه خصائصه، كما لا يخلو في الغالب السرد الكتابي من أثر لموروثات السرد الشفاهي عليه. فليس ثمة كتابي محض يمكن الحديث عنه نظريا بشكل منفصل ومستقل. كما أنه لم يعد ثمة سرد شفاهي محض لا أثر للكتابة عليه منذ أن عرفت الكتابة فضلا عن لواحقها الطباعية»[41] وهذا دليل على أن هناك تعايشا بين الشفاهيّة والكتابيّة.

ويعد الأدب الشعبي من الآداب الذي يمكن أن تتعايش فيه الشفاهيّة والكتابيّة «فالثقافة الشعبية – في الآن ذاته– تقيم توازنا مع "الكتابية" فهي تعرف أن الكتابة دخلت إلى عالمها منذ أزمنة متطاولة، وهي تدرك حاجتها إلى الكتابة. الكتابة باعتبارها وسيلة توثيق وتسجيل. الكتابة باعتبارها ذخيرة للمعرفة...»[42] فالشفاهيّة بحاجة ماسة إلى الكتابة التي هي بدورها لا تستغني عن الشفاهيّة، فالكلمة «المنطوقة، وسط كلّ العوالم الرائعة التي تتيحها الكتابة لا يزال لها حضور وحياة، ذلك أن كلّ النصوص المكتوبة مضطرة بطريقة ما، مباشرة أو غير مباشرة إلى الارتباط بعالم الصوت، الموطن الطبيعي للغة كي تعطي معانيها. و"قراءة" النص تعني تحويله إلى صوت، جهوريا كان أو في الخاطر، مقطعا، مقطعا في القراءة البطيئة، أو اختزالا في القراءة السريعة الشائعة في الثقافات ذات التكنولوجيا العالية. فالكتابة لا يمكن أبدا أن تستغني عن الشفاهية»[43].

تحتاج الشفاهيّة –إذن– إلى الكتابة التي هي السبيل الوحيد للحفاظ عليها، سواء كانت كتابة قديمة (الخط) أو كتابة جديدة (الحاسوب) «فمن دون الكتابة لا يستطيع الوعي الإنساني أن ينجز إمكاناته الأكمل، بل لا يستطيع أن ينتج إبداعات أخرى مفعمة بالجمال والقوة. وبهذا المعنى تحتاج الشفاهية أن تنتهي إلى إنتاج الكتابة وهذا هو مصيرها...»[44]. أي الشفاهيّة والكتابيّة تحتاجان إلى بعضهما البعض.

وتستطيع الشفاهيّة التعايش مع الكتابيّة في هذا العصر التكنولوجي الذي يتوفر على مختلف أنواع الحواسيب، والكاميرات، ومختلف أنواع أشرطة التسجيل "الكاسيت، DVD, CD ..." إنها وسائل حديثة تساعد على الحفاظ على خصائص الشفاهيّة، فقد «نقلتنا التكنولوجيا الالكترونية في الوقت نفسه مع التلفون والراديو والتلفزيون والأنواع المتعددة من أشرطة التسجيل إلى عصر "الشفاهية الثانوية". وهذه الشفاهية الجديدة فيها مشابهة مدهشة مع الشفاهية القديمة بما تتصف به من روحية المشاركة وبتعزيزها للإحساس الجماعي، وتركيزها على اللحظة الحاضرة، بل استخدامها للصيغ كذلك»[45].

تستطيع التكنولوجيا – إذن– الحفاظ على بعض مميزات الشفاهية من خلال التسجيل بمختلف وسائل الاتصال الحديثة التي تستطيع الحفاظ على بعض خصائص الشفاهية هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن أثناء تدوين النصوص الشفاهية الإشارة في الهوامش إلى بعض الإيماءات الواردة فيها "كرفع اليد أو الأصبع، هدوء الصوت تارة، ورفعه، وتنغيمه تارة أخرى، بعض ملامح الوجه كالاحمرار، والابتسامة، والضحك، وتكميش الحاجبين أو رفعهما..." ولعلّ قبول فئات الأميّة الشفاهيّة تعلم الكتابة في مدارس "محو الأمية" خير دليل على قبولهم التعايش مع الكتابيّة التي لا مفر منها.

انطلاقا مما سبق، نقول، إن وجود الكتابة وانتشارها عبر ربوع العالم تقريبا لا يعني غياب وانقراض الشفاهية، فرغم التباين الموجود بينهما إلا أنهما مترابطتان، تستطيعان التعايش داخل النص الواحد، فلا انتصار للشفاهيّة ولا للكتابيّة، فالنص المكتوب دون شفاهيته نص ميّت لا محالة، كما أن النص الشفاهي دون تدوينه وكتابته آيل إلى

الزوال والضياع، فالنصوص إذن بحاجة إلى الشفاهيّة –حتى وإن كانت شفاهية ثانوية– والكتابيّة معا لتكون ذات قيمة فنيّة جماليّة، ولكي لا نحرم القارئ لحظة عيش الشفاهية التي تساعد على التأويل. فتطور الشفاهيّة إلى الكتابيّة يوازي تطور وسائل الاتصال بين الناس في المجتمعات، ومن ثمَّ لا مناص من الاعتماد على مختلف تقنيات الاتصال الحديثة حتى نضمن للموروث الشفوي الاستمرار والبقاء...

وعليه فإننا نوصي بضرورة تسجيل النصوص الشفاهيّة سواء كانت نثرا أم شعرا على مختلف وسائل تكنولوجيا العصر للحفاظ ولو قليلا على بعض مميزات الفكر الشفاهي حتى يتعايش مع الكتابة التي هي مطلب ضروري لا يمكن الاستغناء عنها. بهذا يتحقق التكامل والتعايش نوعا ما بين الشفاهيّة والكتابيّة.

الهوامش:

1- أدونيس: الشعرية العربية، دار الآداب، ط 2، بيروت، 1989، ص 05 – 06.

2- م. ن، ص 09.

3- مايكل كورباليس: في نشأة اللغة، من إشارة اليد إلى نطق الفم، تر: محمود ماجد عمر، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ص 110.

4- م. ن، ص 121.

5- فيلي ساندیرس: نحو نظريّة أسلوبيّة لسانيّة، تر: خالد محمود جمعة، ط1، دار الفكر، دمشق، سورية، 2003، ص 73.

6- والترج. أونج: الشفاهية والكتابية، تر: حسن البنا عز الدين، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، 1978، ص 47 – 48.

7- ينظر: م. ن، ص 80 – 127.

8- ينظر: م. ن، ص77 – 78.

9- لويس جان كالفي: التقاليد الشفهية "ذاكرة وثقافة"، تر: رشيد برهون، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، (كلمة)، أبو ظبي، 2012، ص 172.

10- ينظر: والترج. أونج: م. س، ص 130 – 131.

11- م. ن، ص 131.

12- لويس جان كالفي: م. س، ص 65.

13- م. ن، ص 67.

14- فيلي ساندیرس: م. س، ص 75.

15- م. ن، ص 87.

16- نور الهدى باديس: "المشافهة والتدوين: الثابت والمتغير"، مجلة الثقافة الشعبية، فصلية علمية متخصصة، ع 13، يصدرها أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، مملكة البحرين، 2011، ص 16.

17- ينظر: والترج. أونج: م. س، ص 135 – 136.

18- جان بوتيرو: بلاد الرافدين، الكتابة – العقل – الآلهة، تر: الأب البير أبونا، ط 1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1990، ص 96.

19- ينظر: لويس جان كالفي: م. س، 147.

20- ينظر: م. ن، ص 148.

21- عبد الحميد حواس: "الرّاس أم الكُرّاس (قول آخر في الشفهية والكتابية)"، مجلة الثقافة الشعبية، فصلية علمية متخصصة، ع19، يصدرها أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، مملكة البحرين، 2012، ص 15 – 16.

22- ينظر: جان بوتيرو: م. س، ص 102– 114.

23- عبد الله إبراهيم وسعيد الغانمي وآخرون: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ط 2، المركز الثقافي العربي، 1996، ص 133.

24- جابر عصفور: تراتب الأنواع الأدبية، علاقة الكاتب بالسلطة، والكتابة بالدولة، مجلة العربي، وزارة الأعلام الكويتية، 440 – يوليو، 1995، ص 71.

25- لويس جان كالفي: م. س، ص 149.

26- م. ن، ص 150.

27- نور الهدى باديس: م. س، ص 16.

28- مايكل كورباليس: م. س، ص 48.

29- فيلي سانديرس: م. س، ص 75.

30- ينظر: والترج. أونج: م. س، ص 104.

31- فيلي سانديرس: م. س، ص 73.

32- والترج. أونج: م. س، ص 117.

33- ينظر: م. ن، ص 115 – 157.

34- مايكل كورباليس: م. س، ص 48.

35- والترج. أونج: م. س، ص 156.

36- م. ن، ص 45.

37- لويس جان كالفي: م. س، ص 163.

38- عبد الله إبراهيم وسعيد الغانمي وآخرون: م. س، ص. ن.

39- م. ن، ص 168 – 169.

40- لويس جان كالفي: م. س، ص 170.

41- سيد إسماعيل ضيف الله: آليات السرد بين الشفاهية والكتابية، دراسة في السيرة الهلالية ومراعي القتل، ط 1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008، ص 20.

42- عبد الحميد حواس: م. س، ص 14.

43- والترج. أونج: م. س، ص 44.

44- م. ن، ص 52.

45- م. ن، ص 197.